الأخلاق وفلسفة الجبر

للدكتور منصور بك فهمى

أستاذ الفلسفة بالجامعة المصرية

(أحدث صورة للدكتور . خاصة بمجلة المعرفة)

الدكتور منصور فهمى : فيلسوف بطبعه قبل أن يعرفه الناس فيلسوفا بصناعته . وماذا تطلب من الفيلسوف أكثر من أن يكون كما قال أفلاطون : ذا رغبة وقادة فى معرفة كل الموجودات الحقيقية . يبغض الكذب ، ويحب الصدق . يحتقر اللذات الجسدية ، ولايكترث للمال . سامي المدارك . حر الفكر . عادل دمث . سريع الخاطر . ذا فطرة وقادة .

والحق أن انسانا — بالغا مابلغ من حب النقد — لايستطيع بحال ما . انكار توافر هذه الصفات فى أستاذنا الجليل . وفضله على الامة متمثلة فى شبانها — الذين أضحوا بفضله فخر الشباب المثقف ، وزينة المجامع العلمية — لاينكر

وأستاذنا يمتاز على غيره . بأنه رجل لايصدر الا عن ذات نفسه . فهو يقول مايعتقد تماما ويصرح بما يقصد فى غير مواربة أو تملق

تشرفت بزيارته . راجيا تزيين (المعرفة) ببحث من بحوثه القيمة . فتفضل على وأملانى هذا البحث القيم الذى كنت وأنا أستمع اليه كأنما أستمع الى الوحى ينزل عليه ؟

المحرر

طالما يسند علماء الغرب ومفكروه فلسفة الجبر ، إلى السواد الأعظم من الشرقيين ، وبالأخص المسلمين منهم .

والمقصود بفلسفة الجبر . هو هذا المذهب القائل : بعجز الارادة والعقل عن تشييد شؤون حياة الانسان . وبعبارة أخرى نفي الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته الى الرب

يلوح المسلم إذن لنظر بعض أهل الغرب ، فى صورة من يرى أعماله مقدرة عليه بارادة غير إرادته . ولعل هذه الصورة التى يلوح عليها المسلم فى نظر غيره . قد تكونت مما كتبه عدد كبير من أدباء الغربيين فى كتبهم وقصصهم ، التى صوروا بها أهل الشرق . فيظهرون فى تلك القصص أبطالها ، صابرين على الأذى باسمين لأحداث الدهر ؛ تتردد على ألسنتهم كلمات يتعزون بها كمرادفات : « القسمة » و « الحظ » و « البخت » و « النصيب » و « المقدور » و « القضاء »

وربما يكون كذلك من العناصر المكونة لصورة الشرقى ـ على نحو مايراه الغربى ـ تلك المناقشات وضروب الجدل ، التى كانت فى العصور الخوالد ، إذ كانت الفلسفة الأسلامية فى شبابها . وكانت أصداء تلك المناقشات والمجادلات تتردد بين مذاهب أهل الجبر وخصومهم فى زمن دولتى بنى أمية و بنى العباس

لكن مسائل الجبر والقدر ، ليست من المسائل التى تفرد بها الشرقيون ، بل هى من أمهات المسائل التى تشغل أذهان البشر ، مذعرف البشر لنفسه تاريخا . وذلك لأنها من المسائل الفلسفية العويصة ، التى من طبيعة الذهن البشرى ، أن يتشوف إليها . وقد يتناولها بالبحث : كمسألة علة الوجود ، وكمسألة الروح والخلود ، وكمسألة الحسن والقبح وغير ذلك مما يشغل الأنسان . إذ يتعمق فى النظر الى الأمور ولقد كان فى فلسفة اليونانيين الرواقيين ، مايؤدى إلى معانى الجبرية . وكذلك فى فلسفة النصرانية . على أن الأسلام قد اشتهر بهذه الفلسفة على وجه أخص

والجدير بالبحث والتمحيص ، عند تناول موضوع الجبر فى الأفعال . هو أن نميز بين الحياة النظرية الخالصة ، والحياة العملية الخالصة . أو بعبارة أخرى : أن نميز بين حاجات الفكر المحض وحقه من التحليق فى سماء النظريات المطلقة ،

والتأملات المجردة . وبين حاجات الحياة العملية ، وحقها من نجاز العمل وتحقيقه

وليس من شك فى أن للفكر النظرى الخالص ، أساليبه ولذاته من التطاول إلى العلل البعيدة ، والمراجع الأولى للأمور ، وذلك لأن العقول تتوثب بطبيعتها لتتغلغل فى أصول الأشياء مادامت الموانع لذلك التغلغل مرتفعة . وليس من شك كذلك فى أن الحياة العملية ، تقتضى إسراعا وبتا وقطعا ، وذلك لأن كل عمل ، أو فعل ، إنما هو بطبيعته تحقيق وظهور للقوى التى تنتهى إلى العمل حين تتعدى حالها الى حاله . ومن كمال تحقيق الفعل الأسراع .

وإذا كان الامر كذلك ، فان حاجات الحياة العملية ، تغاير حاجات الحياة الفكرية فبينا نجد هذه الأخيرة تشير بالفكر الى أبعد الأصول والعلل والغايات والمقاصد نرى أن الحياة العملية طالما تقضى بغض النظر عما لا يتصل بالعمل اتصالا مباشرا .

وبينا نجد حاجات الحياة الفكرية الخالصة ، قد تجر إلى ضروب من الحيرة والتردد ، نجد أن الحياة العملية ، تقضى بأساليب من القطع والجزم . ولعل ديكارت حين أراد أن يتخير لنفسه مذهبا يسير عليه فى السلوك ، رأى أن أسلم السبل : يكون فى الخضوع لمطالب العرف ، وذلك لأن أمر السلوك ومعاملة الناس ، من الأمور العملية الناجزة التى لا تترك مجالا لكثرة التفكر ووفرة النظر .

* * *

الأنسان فى أفعاله وسلوكه ، يخضع لناموس الكون من حيث اتصال العلة بالمعلول . لكن من خصائص الأرادة أو الانسان المريد ، أن يقصر المدى . ويضيق المجال عندما ينظر إلى سلسلة العلل الممتدة البعيدة التى تتصل بعمل من أعماله ، وإن فى هذا التقصير والتضييق ، تحديدا اعتباريا ، وقطعا تحكميا ، من الانسان فى هذه السلسلة الطويلة ، التى لا تنتهى إلا عند السكون والركون إلى العلة الأولى . وعند هذا القطع التحكمى ، الذى لا تلوح معه للناظر إلا العلل القريبة ؛ قد يخيل للانسان المريد الموجه لأعماله أنه فاعل لها . وذلك لتدخله واندساسه

فى حلقات تلك السلسلة المتواصلة ، بحيث لا يرى منها إلا ما يريد أن يراه معلقا بالإرادة وبحيث يحجب عن النظر ما لا يريد أن يراه من حلقات هذه السلسلة المترابطة ، وبحيث يفرض لنفسه القـدرة على التدخل فى الأمور أو الانقباض عنها .

وعلى هذا ؛ ففى مقام الفكر والنظر الخالص ، لا يبدو للعقل المجرد ، إلا فلسفة الجبر والترابط ، وفى مقام العمل والحياة العملية ، ليس يبدو للفكر إلا فلسفة الاختيار .

واذا كان من نصيب أكثر الشرقيين ، أن يصح فى حقهم ما يصورهم به الغربيون كأنصار لمذهب الجبر ، يدينون به ، ويؤمنون بفلسفته ، فربما يكون من الأسباب التى تحمل على تصور ذلك - دون تعمق ومن غير تحفظ ، بين أسلوبى الحياة العقلية والعملية - أن الشرقيين مرت عليهم ، أحقاب من الزمن ، وهم فى ظل الحضارة الطبيعية ، وأقصد بالحضارة الطبيعية ، ذلك الأسلوب من العيش ، الذى هو أدنى إلى مسايرة الطبيعة فى قوانينها ونواميسها ، من غير كبير تدخل من العقل والارادة فى أمر هذه النواميس والقوانين . ففى حياة الطبيعة والفطرة ينمو النبات ويؤتى ثمره ، وفق نظام نوعه ، فى أوان معين . وفى الطبيعة والفطرة تقطع المسافات البعيدة أو القريبة ، وفق نظام الانسان فى تركيبه الجسمى ، أو وفق نظام الحيوان فى طاقته ، أو وفق سير الهواء فى قوته ، أو وفق مجال الأنهار والتيارات فى اندفاعها . وإن حياة الطبيعة الساذجة ، أو الفطرة الأولى التى لم تنبث فيها نظم العمران وحاجاته ، من توزع الأعمال ، ومظاهر العقل ، ودوافع الارادة ، قد تجود هذه الحياة على الانسان بفترات واسعة مباركة من الزمن ، قد تستخدمها الجبلة النظرية للعقول الممتازة ، فى التطاول إلى العلل البعيدة .

وعلى هذا فان الحياة الشرقية ، التى كانت أدنى ، أو هى أدنى إلى مميزات الحياة الفطرية وكانت بذلك أدنى ، الى الجود بفترات من الزمن والوقت ، لحاجة الانسان ، فانها من غير شك ، كانت تهيء إلى قابلية أوسع لفلسفة الجبر ، وما تجر إليه من فلسفة التوكل التى ينظر إليها بشيء لا يخلو أحيانا من تهكم وتعجب لا قيمة لها فى نظر التمحيص والتحقيق .

وعلى عكس ما تبدو به صورة الشرقى والحضارة الفطرية ، نرى أن المدنية الصناعية التى نشأت فى الغرب وفى الزمن الأخير ، تعمل جهد طاقتها ، فى التسلط والسيطرة والتدخل فى سنن الطبيعة . فقد تنبت النبت فى غير أوانه المعهود ، وتقرب الأصقاع المتنائية على مالا يعهد الناس ، من أدواتهم ووسائلهم الساذجة وهذه الحضارة الصناعية : قد تستولى من الأنسان على جميع وقته الذى يتوزع بين العمل وحاجات الحياة الاجتماعية على نحو تهصج النفس البشرية فيه ، كأنها آلة من الآلات المتحركة فى دأب واستمرار . فلا تجد النفس وسعة من الزمن لتتسامى فيها عن حاجات الحياة اليومية العملية إلى مطالب طبيعتها ، من التأمل المريح ، الذى يظهر للنفس والعقل صورتهما الحقة ، وطبيعتهما التى قد تتوارى من أثر الحضارة الصناعية ، على ما هى عليه فى صورتها الراهنة المرهقة .

والخلاصة أن كل حضارة ، أو كل أسلوب من الحياة ، يفسح مجالا للعقل النظرى الراقى ، فهو مبلغ من غير شك إلى المسائل الفلسفية العالية التى منها فلسفة الجبر

وعندى : أنه اذا أتيح للحضارة الصناعية التى هى من ميزات الغرب والزمن الحاضر — أن تنتهى إلى توزيع الأعمال والجهود والثروات والمتوجات توزيعا عادلا ، بحيث يجد الأنسان الممتاز فراغا للتأمل - فان هذه الحضارة الغربية الصناعية ، تؤدى إلى فلسفة الجبر التى هى من ملازمات بركة الوقت ، أكثر منها مالو كانت من خصائص صنف من الناس ، أو صنف من العقول .

أما ماقد يقال عن ضعف إرادة بعض الشرقيين ، وقصور همتهم ، للمضى فى أعمال الحياة ، فذلك له أسبابه الكثيرة التى لانتعرض لبحثها الآن ، لاننا فرقنا بين مباحث الفكر النظرى وحاجاته ، وبين الأرادة وحاجاتها فى الحياة العملية وإن ماتناولناه من هذا البحث ، يتصل بموضوع الفلسفة النظرية وأساليب التفكير المجرد . وإذا كنا أهملنا بحث الحياة العملية ، فى هذا المقال ، فذلك لكى نشير ، من خلال ماتقدم ، إلى أن فلسفة الجبر ، ليست خاصة من خصائص الشرقى ، ولا من خصائص الغربى ، ولكنها من آثار العقل المجرد الراقى ، إذ يجول فى فسحة من الوقت ويرتاض فى بحبوحة من الزمن ؟

منصور فهمى